العنف الثقافي ودلالته النسقية في رواية "القلاع المتآكلة "لمحمد ساري.

Cultural violence and its systemic significance in the novel of Muhammad Sari: "decaying castles".

زينب مناصرية*

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة، جامعة عباس لغرور خنشلة.

zineb.menasria@univ-khenchela.dz

تاريخ الاستلام: 2023/02/01 تاريخ القبول 2023/04/14 تاريخ النشر 2023/05/14

ملخص:

عرفت الرواية الجزائرية عبر تاريخها الطويل محطات متنوعة، ومن بين هذه المحطات تلك التي عبرت عن الفترة التسعينية، ليحضر العنف كتيمة رئيسية في متنها، حاملا معه بكائية مستمرة ودلالة نسقية من جهة، ومن جهة أخرى تمكنت من التمرد على طقوس الكتابة التقليدية، وتتجه في مضمار مغاير كل المغايرة، باعثة بذلك على التحليل والحفر، فاتحة أسئلة عدة تتعلق بالعنف، الارهاب، السلطة، الموت ...وغيرها من الاسئلة التي أثثت متنون الأعمال التي عبرت عن تلك الفترة، أي التسعينية.

الكلمات المفتاحية: العنف، الثقافة، الدلالة النسقية، القلاع المتآكلة، محمد ساري.

Abstract:

The Algerian novel has known throughout its long history various stations, and among these stations are those that expressed the nineties period, to bring violence as a main theme in its body, carrying with it a continuous crying and a systematic significance on the one hand, and on the other hand it was able to rebel against the traditional writing rituals, and heading in a different field all different, thus sending analysis and digging, opening several questions related to violence, terrorism, power, death... And other questions that furnished the body of works that expressed that period, -that is the nineties-.

Keywords: violence, culture, systemic significance, decaying castles, Mohamed Sari.

مقدّمة:

تشهد المجتمعات الغربية والعربية تحولات فكرية، علمية، إيديولوجية، انعكست على الأدب ليتمخض عن هذا التحول، تغيرات جذرية مسَّت مستوى البنية السَّردية للأعمال الأدبية على اختلافها وائتلافها، إذ تعد رؤية إبداعية جديدة وصورة من صور الحداثة (Modernism)التي يمكننا القول عنها بأنها "مصطلح يستخدمه النقاد والباحثين للدلالة على الانتقال من مرحلة الفكر النقدي والأدبي التقليدي إلى مرحلة جديدة"[1]، والذي يمثلها غربيا شارل بودلير، وعربيا أدونيس.

والرواية الجزائرية كانت مسايرة لذلك التطور وتجري في فلكه، خارقة لكل ما هو سائد ومعروف، متجهة في مضمار مغاير كل المغايرة، لتلتفت بذلك نحو التجريب الذي اعتبرته وعاء يصب فيه الكاتب أفكاره ورؤيته الإيديولوجية، محاكيا الواقع في فترة التسعينات وباقي الفترات، من خلال محاورة البنية السوسيوثقافية وتفسير الأزمة وفضح المسكوت عنه، عن طريق تصوير دكتاتورية كل من السلطة والتطرف.

وهكذا من اليسير أن يقف المتلقي على عديد من الروايات الجزائرية والتي طرحت قضايا الارهاب والاستعمار والعنف والموت والعشرية الحمراء ... وغيرها، ومن تلك الأعمال نذكر على سبيل المثال -لا الحصر-، تاء الخجل لفضيلة الفاروق، رواية راس المحنة لعزالدين جلاوجي، الزاوية المنسية لليامين بن تومي، المراسيم والجنائز لبشير مفتي وغيرها كثير، ومن هنا سعت الرواية الجزائرية إلى تعرية الواقع الذي عاشته الجزائر سابقا، لتكون بمثابة سجالا دون الأحداث بصورة فوتوغرافية فنية، فالسرود التي عبرت عن فترة العشرية السوداء، حاولت أن تؤسس لنص متميز يتواشج مع الواقع الذي عاشته الأمة بسبب الهيمنة الاستعمارية أو بعد أحداث 1988.

فأنتج الكتاب في مختلف مدوناتهم موضوع العنف، كونه ظاهرة عاشها المجتمع الجزائري مرتين –الاستعمار – الحرب الأهلية –، فروايات محمد ساري طرحت قضية العنف، وجاءت لتعبر عن الأحداث الصاخبة التي عاشتها الجزائر في فترة التسعينات من القرن المنصرم.

ومن هنا كان الهدف من هذه الدراسة، يتمثل في استنباط ملامح العنف وتحديده في متن رواية القلاع المتآكلة، ومعالجة فكرة العنف القائم بين السلطة المستبدة من جهة والإرهاب المتطرف من جهة أخرى، هذا ما يقود لفتح باب التساؤل والذي يثير إشكالات عدة أبرزها:

- ما مفهوم كل من العنف والثقافة؟
- وماذا نقصد بالعنف الثقافي؟
- وكيف تجلى داخل متن رواية القلاع المتآكلة لمحمد ساري؟

وحتى نتمكن من الإجابة على تلك الإشكاليات، سنعتمد على آليات المنهج الثقافي الذي يتوسد على النسق، لاستقصاء المضمر من وراء البلاغي الجمالي في الخطابات الأدبية.

ضمن هذا السياق، تستدعي الدراسة الحالية، وعبرها شقها الأول، البحث عن معنى العنف والثقافة، ومفهوم العنف الثقافي والدلالة النسقية، لنمر إلى الشق الثاني ونرصد من خلال المتن تمثلات العنف الثقافي داخل رواية القلاع المتآكلة ودلالته النسقية

1- مفهوم العنف

العنف ذلك المصطلح الذي لا نريد تعريفه من جهة، ولا تجاهله من جهة أخرى، كونه مصطلحا رخويا تتناثر معه معاني وافرة كالحرب، العدوان، التدنيس، التعسف، التسلط، الإرهاب، التدمير...وغيرها.

فهو كدال يشير في اللغة وكما جاء في المعجم الوسيط:"(عنف)به، وعليه –عنفا وعنافة: أخذه بشدة وقسوة، و(أعنف) الأمر: أخذه بعنف"[2]، وهو نفس المعنى الذي آلت إليه المعاجم الفرنسية إذ " جاء العنف في القاموس الفرنسي تحت عنوان force وهي تعني الطاقة، العنف، الصرامة، القوة، وهي مرادفة للمصطلح "[3] violenceليكون العنف بهذا مناقضا لكل معاني اللين والمسالمة.

بيد أن العنف كمفهوم تتزايد صعوبة الحديث عنه، كونه يختلف من نظرية إلى أخرى ومن مجال إلى آخر كل حسب توجهاته وآرائه الفكرية، فالعنف في علم النفس والاجتماع يختلف عنه لدى علماء السياسة والقانون.

وعلى سبيل المثال، نظر أصحاب نظرية علم النفس للعنف نظرة مختلفة تميزه عن باقي النظريات، إذ ينظر إليه من جانب سلوك الفرد العدواني الذي يمارس ضد الآخر، مما ينتج عنه خوف وهلع نفسي، فقد التمس أشهر منظري علم النفس سيغموند فرويد (Sigmund Freud) إلى تحري الجانب الباطني للإنسان وإثبات أن الإنسان شر في حقيقته، معتقدا بوجود بواعث داخلية عدوانية تمارسها الانا ضد الآخر فهذه التصرفات العدوانية، وحسب رايش" فإنها ناتجة عن الإحباط، وشدة العدوانية تتناسب مع شدة الإحباط وتزداد هذه العدوانية مع نموت عناصر الإحباط".[4]

وتبعا لهذا، فالعنف والعدوان ترجمة لبواطن النفس، يعوض من خلالها الشخص ذاته ويملأ بها عجزه وشعوره بالنقص، فهذه السلوكات التي تتصف بالاختلال على المستوى النفسي للشخص تكون ب "تمركزه حول ذاته égocentricity وهو ميال لاختبار العنف كوسيلة لحل مشاكله "[5].

وما من شك في أن الحديث عن العنف من زاوية علم النفس، يقودنا للحديث عنه من زاوية علم الاجتماع، إذ يظهر المعنى السوسيولوجي للعنف في علم الاجتماع من خلال قول أحمد زكي بدوي (1922- 2006)، الذي يعرفه على أنه " الإكراه أو

استخدام الضغط أو القوة استخداما غير مشروع أو غير مطابق للقانون من شأنه التأثير على إرادة فرد ما أو مجموعة من الأفراد".[6]

فالعنف بهذا المفهوم، كل سلوك يتسم بالخرق على المستوى الاجتماعي والذي يعاقب عليه القانون نظرا للضرر الملحق بالفئات المعنفة، وهو ما يؤكده عاطف غيث عند تعريفه للعنف بقوله " هو فعل ممنوع قانونيا وغير موافق عليه اجتماعيا ".[7]

وفي الإطار نفسه، يشير إميل دوركايم (Emil Durkheim)، إلى العنف الذي اعتبره بأنه" نقص التنظيم الاجتماعي وعدم الانسجام بين الوظائف الاجتماعية المرتبطة بالأفراد والجماعات تسبب انقطاعا مؤقتا في التضامن الاجتماعي، مما يعكس حالة من اللانظامية التي تمهد خلل اجتماعي يصيب جسم المجتمع، ينتقل تدريجيا إلى الطابع العنيف"[8].

من خلال ما سبق، وفي ضوء النظريات التي قدمت مفاهيم مختلفة حول العنف، نجد أن هذا الاختلاف كان نتاجا لاختلاف الحقل المعرفي الذي عرف في ضوئه العنف، إلا أن هذه النظريات تتفق على أن العنف سلوك نفسي يتسم بالعدوانية داخل الدائرة الاجتماعية والتي يعاقب عليها القانون.

2- في مفهوم الثقافة

مصطلح الثقافة من بين المصطلحات الشائكة، والتي تطوقها ضبابية كثيفة، بدءا بماهيتها، مرورا إلى اختلافها كمفهوم في البيئة الغربية والعربية، كونها مصطلح فضفاض ينمو كحركة ديناميكية، فهي متعددة الأوجه الأمر الذي يفاقم صعوبة اعتماد مفهوم موحد جامع للثقافة، فقد تحدث عن هذه الإشكالية عبد المالك بن نبي (**1905-1973**) في كتابه مشكلات الثقافة بقوله : "لكن تعدد وجوه الثقافة لا يساعدنا في تعريفها على أنها (شيء)، بل على أنها علاقة متبادلة، هي العلاقة التي تحدد السلوك الاجتماعي لدى الفرد بأسلوب الحياة في المجتمع، كما تحدد أسلوب الحياة بسلوك

الفرد"[9]، فالتبادل الذي يتحدث عنه مالك بن نبي يتمثل represent) ، في احتكاك ذات الفرد والمجتمع، فكلما تغير المستوى الاجتماعي تبلور معه مفهوم جديد للثقافة، هذا ما يبصر على نمو وتطور معانيها لتدخل إلى حقل الدراسات الأنثروبولوجية، وتصبح مصطلحا علميا دقيقا.

إذ يمكن معاينة هذا التطور بجلاء، من خلال المفاهيم التي أفردها العلماء لمصطلح الثقافة، فمثلا عند علماء الإحياء هي " اكتساب وراثي أو فطري تنتقل إلى الإنسان دون أن يبذل أي جهد"[10]، وحسب هذا المفهوم فإن الثقافة نشاط يكتسبه الانسان.

وفي الإطار نفسه، وعند علماء الأنثروبولوجيا نجد الإنجليزي إدوارد تايلور (Taylor)، يجعل من مصطلح "الثقافة "مرادفة لمصطلح "الحضارة" بقوله: "إن الثقافة" و "الحضارة" موضوعة في معناها الإثنولوجي الأكثر اتساعاً في هذا الكل المركب الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون وكل القدرات والعادات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع". [11]

هكذا إذن، فمصطلح الثقافة يشبه مظلة ضخمة تنهل من عدة مجالات لتكون مفهومها، ليعيش مصطلح الثقافة اغترابين الأول من ناحية المفهوم، والثاني من ناحية جذور هذا المصطلح الذي عده البعض دخيلا على الثقافة العربية، والذي يرتبط في بداياته بالبيئة الفرنسية التي أطلقت مصطلح الثقافة على فلاحي الأرض فقد " ظهرت في أواخر القرن الثالث عشر منحدرة من Cultura اللاتينية التي تعني العناية الموكلة للحقل والماشية وذلك للإشارة إلى قسمة الأرض المحروثة"[12]، فهذا الطرح لا ينفي القول بأن العرب لم يشيروا إلى مصطلح الثقافة، والتي وردت في مقدمة ابن خلدون كمرادف للعمران.

إذا توضح السطور السابقة على الأقل، المشكلات التي واجهت مصطلح الثقافة والتي تكونها كل من اللغة والدين والعادات والتقاليد وجملة الشعائر والطقوس الخاصة بكل مجتمع.

3- العنف الثقافي والدلالة النسقية:

في ظل الأزمات التي تشهدها المناطق العالمية وليس الوطنية فحسب، وما تبعها من حروب وعنف داخلي (المذاهب الدينية، الطوائف)، ناهيك عن فاعلية الخطاب الاعلامي خصوصا الأمريكي ودوره في إنتاج مختلف الظواهر السلبية في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية، وتطعيم الواقع العربي بمختلف الأمراض الثقافية، فقد ساعد هذا التطور التقني في تطوير أساليب العنف وجعلها أكثر فتكا، ليختلط العنف بالثقافة، وينتج لنا ما يعرف ب: " العنف الثقافي" والذي يختلف عن " ثقافة العنف."

فالعنف الثقافي هو "جانب في الثقافة يمكن أن يستخدم لشرعنة العنف بشكله المباشر أو غير المباشر لأن العنف الثقافي المبني على ثقافة ما لا يعني القتل أو التعويق مثل العنف المباشر"[13]، فهذه الصورة تؤكد على فعل العنف المباشر و العنف الغير مباشر - بدون قتل أو تشويه مباشر-، إنه قمع العقول والنفوس لا قمع الأجساد، ويتمثل في قتل حرية المبدع بدرجة أولى، ومن هنا نجد أن المثقف لا يتمتع بالحرية بسبب التسلط الذي يؤدي ضمنيا إلى عملية القمع فهذا اللون من العنف والذي يختلط مع الثقافة يمكن إدراجه ضمن ما يعرف بالعنف المؤسساتي المشرعن.

بيد أن "ثقافة العنف "وحضورها في السرود دون وعي منظم، تحمل في مضمونها مادة لغوية إقصائية فهنا يتم العنف بطريقة رمزية مهذبة، وهي نتيجة واقع مليء بالحروب والقتل، إذ تظهر ثقافة العنف عن طريق اللغة التي يمرر من خلالها السارد، مجموعة من عناصر السلطة و الهيمنة والإيديولوجيات السائدة والأفكار المتداولة، ويكون أيضا عن طريق السب والشتم، ليكون عنفا رمزيا هادئا يتغلغل داخل الخطاب، والذي نستقصيه

بالحفر وتعرية الجمل البلاغية والنحوية وكشف مضمراتها الثقافية، مما ينتج لنا "دلالة نسقية"، والتي تعد من أحد مرتكزات النقد الثقافي، فالنسق كونه خطابا مضمرا فهو الذي يؤدي إلى نشوء تلك الدلالة النسقية وهذه الدلالة" ذات بعد نقدي ثقافي، وترتبط بالجملة الثقافية"[14]، وعلى هذا الأساس فإن الطبيعة المتلونة للعنف تجعله يتخذ عدة صور تتمركز في عمق الخطاب.

4- عنف السلطة في رواية (القلاع المتآكلة) :

تدور رواية القلاع المتآكلة في فضاء عين كرمة، وتقدم صورة عاكسة للواقع الذي عاشته الجزائر في فترة التسعينات التي كانت فترة السبعينات مهادا لها، وبسببها عرفت الجزائر وضعا متأزما، إذ يمكن اعتبارها نموذج للرواية الاجتماعية السياسية، وفي هذا إحالة مباشرة إلى التاريخ.

على أن عرض ذلك التاريخ، اتكأ فيه الكاتب على كل من شخصية المحامي الأعزب عبد القادر والذي يتمتع بحرية واستقلالية، مجسدا شخصية المثقف الفعال الواعي الذي حاول مجابهة ذلك العنف العاصف بمنطقة عين كرمة وسكانها، والقضاء على كل المظاهر السلبية، على عكس قرينه رشيد الملحد الذي وكل له قضية وفاة ابنه نبيل أحد شباب المنظمات الارهابية والذي تدور حوله شكوك قتله، هل قتل؟ أم مات مقتولا؟

لتتوارى الأحداث وتنتهي هذه الرواية بالقضاء على تلك الجماعات المسلحة من طرف الشرطة.

وبنظرة فاحصة على أعمال محمد ساري[15] يجد تيمة العنف تشكل منهلا هاما لسرديته والتي عبرت عن أوضاع الأزمة التي عاشتها الجزائر في ظل الحرب الاهلية، فلا تخلو روايته "القلاع المتآكلة" من تيمة العنف وكل ملامح الهيمنة (hegemony) المنغرسة داخل الخطاب السردي، حيث حاول الروائي أن يصور مظاهر عنف السلطة عبر نموذجين:

أ – ارتحال السلطة من الفساد إلى الإرهاب :

العنف والسلطة ثنائية متلازمة مترابطة، بحيث يعبر أحدهما عن الآخر، فلا سلطة بلا عنف ولا عنف بلا سلطة تشرعنه، والسلطة في أبسط مفاهيمها تشير إلى "القوة التي بها تأمر شيء ما وتفرضه، وقد تكون مبنية على العنف والقوة، أو على الحق والقانون".[16]

بيد أن هذا المفهوم على سهولته يضمر العديد من الإشكاليات الناتجة على ممارسة السلطة التعسفية، المهيمنة على المشهد السياسي والاجتماعي والثقافي، لتستبد به دون منازع، فالسلطة في رأي إليوت تعني " القوة الرسمية المتوقعة والمشروعة أو هي ذلك الاستخدام المشروع القوة في مؤسسات المجتمع"[17]، إذ يصعب تحديد أشكالها في الأعمال السردية.

وبإضاءة دهاليز رواية " القلاع المتآكلة لمحمد ساري "، نجد الراوي عبر عن قوة السلطة وبطشها من جهة، وعن الخراب الذي تسببته تلك الجماعات الارهابية من جهة أخرى، وهو ما يؤكده قوله: "العسكر من ورائنا والإرهاب أمامنا فأين المفر"[18]، فهذا القول يبصر على وجود فئتين يمارس العنف عن طريقهما الارهاب والدولة، التي كانت سببا في أن تطفو تلك الجماعات المسلحة على السطح، فالأحداث التي عرفت في السبعينات كانت تمثل المسلك الأول لتفشي ظاهرة العنف ، وهو ما نستدل عليه من خلال ردت فعل عبد القادر في نقاشه مع أحد زملائه بقوله: " ماذا فعل زروالك هذا حتى يستحق كل هذا التبجيل ؟ هل أخرج الشيوخ من سجنهم وأقام معهم صلح كصلح الحديبية " أم أنه سحب ترشحه من الرئاسيات وترك المدنيين يخوضونها بحرية دون تدخل الجنرالات"[19]، فهذا القول ينم على عدم تمكن السلطة من التحكم في زمام الأمور، وانفلات الأحكام التي كان العنف المدني نتيجتها.

وضمن هذه السياسة، يبرز فساد السلطة في تلك الفترة فلا " قانون ولا سلطة يخضع لها المتمردون حاقدون على الحكومة وخطاباتها الواعدة الكاذبة"[20]، فالسارد يبرز فساد

السلطة من خلال تقديمها للوعود الكاذبة، فمن يملك السلطة يملك القوة –الحصانة–، فالجزائر أمام وضع سياسي متعفن في زمن العشرية السوداء.

ولا يتوقف الأمر هنا فقط، بل اعتمدت السلطة لفرض الطاعة وترويض الشعب على عبوديتها "سياسة الاعتقال"، بقمع كل متعارض معها حاملة شعار "العنف بالعنف"، فكل " المعارضين السياسيين سجنوا وعذبوا أشنع وأبشع تعذيب"[21]، فالسجن كفضاء يشير إلى الموقع الذي تستلب فيه حرية الفرد وتبدأ فيه معاناته.

فالقارئ لهذه المقاطع يلحظ كيف تمثل العنف من خلال سياسة القمع، ويفضح المسكوت عنه، المتمثل في فساد الحكم والاستبداد مبرزا سخطه ضد السلطة، التي كانت تقمع كل من يقف ضد قراراتها وكانت الجماعات الإرهابية أولها.

وبالعودة إلى العنف نجد الانتهاكات التي مارستها الجماعات الإسلامية من سفك الدماء وذبح وحمل السلاح ضد السلطة، وإقامة الدولة الإسلامية تمثل المسلك الثاني الذي يؤطر الرواية، إذ يعد الإرهاب ظاهرة عالمية نالت قدرا من الاهتمام والحفر في أسباب ومدة حدوثها، و يظهر هذا العنف الإرهابي في متن الرواية من خلال الانتهاكات التي قامت بها تلك الجماعات من قتل وذبح وهو ما يؤكده السارد بقوله : "جثث مشوهة بلا رؤوس ورؤوس آدميين بداخل أكياس مرمية في الطرقات..."[22]، فقد وصلت وحشية الإرهاب المتطرف إلى تشويه الجثث وانتهاك حرمة الميت والتجرد من الإنسانية، فهذه التصرفات على حسب الكاتب دكتاتورية.

كمقابل لذلك العنف، تمخض عليه تدهور الأوضاع الاجتماعية، ليحل الخراب والحرب بدل السلم والسلام في البلاد، فظاهرة الإرهاب حسب الروائي هي نتاج وضع متأزم على جميع المستويات – الدولة والمجتمع–، فالأسباب التي استعرضها في الرواية مستنبطة من الواقع الجزائري، ليكون العنف المقدم في هذا المشهد بطريقة منظمة وغير اعتباطية عشوائية وإنما من أجل كشف اللثام عن الواقع.

انطلاقا مما سبق، يلحظ القارئ بأنه هكذا كان حال الجزائر في العشرية السوداء أو الحمراء أو الحرب الأهلية ومسمياتها، فهذه الازمة سرقت أحلام الصغار والكبار، وحصدت أرواح الأبرياء من الشعب، والذين لم يكن لهم دور ولا رأي في ذلك الصراع.. وهذا ما عبر عنه محمد ساري في رواية "القلاع المتآكلة" واصفا للمجازر وكل أشكال العنف الممارس ضد الشعب ومن له علاقة ضد السلطة.

ب – عنف السلطة البطريركية :

إن المجتمعات العربية التقليدية خصوصا مجتمعات أبوية، يتسيد فيها الرجل على السلطة، بحيث تكون هذه الوصاية مشرعنة، الأمر الذي خول له أحقية السيطرة على المرأة والتي تقود في كثير من الحالات إلى العنف.

فظاهرة العنف ضد المرأة تتطلب بالضرورة وجود طرفين طرف يعنف وهو الطرف الذي يملك القوة والسلطة، وطرف يمارس ضده العنف وعادة ما يكون هذا الطرف ضعيفا، "فيقصد بمصطلح العنف ضد المرأة أي عمل من أعمال العنف القائم على نوع الجنس يترتب عليه إيذاء بدني أو جنسي أو نفسي أو معاناة للمرأة بما في ذلك التهديد بالقيام بأعمال من هذا القبيل أو الإكراه أو الحرمان التعسفي من الحرية، سواء حدث ذلك في الحياة العامة أو الخاصة"[23].

إن العنف الذي تعرضت له المرأة في هذه الرواية جاء نتيجة قهر واضطهاد اجتماعي، كونها تجرعت مرارة العنف في ظل العشرية السوداء، ليبرز العنف باستخدام كل مظاهر القوة سواء كانت – فيزيائية أو معنوية – ضد أحد أفراد الأسرة وهو ما يبرز – نسق السلطة الابوية – والهيمنة الذكورية المشرعنة، فهذه الأيديولوجيا الطبقية تفضح دونية الآخر والاعلاء من شأن الأنا – الفحل.–

فنجد بين المقاطع السردية التي احتوتها رواية " القلاع المتآكلة " الصورة السلبية للمرأة المعرضة لكل أنواع التهميش والاحتقار والعنف النفسي والجسدي، ويظهر ذلك في

القول: " المرأة عموماً ضعيفة وسريعة التأثر لا تجد راحتها إلا بالانضمام الكلي داخل الجماعة، ثم إن المرأة بهشاشتها وضعفها وقلة زادها الفكري، تخاف من العين وتؤمن بالشعوذة وكرامات الأولياء ...النساء الأميات الجاهلات وأنت تتكلم عن زمن الاستعمار ... المرأة هي المرأة لا فرق بين الجاهلة والمتعلمة"[24]، فهذه اللوحة السردية تكشف بان المرأة سواء كانت مثقفة أم أمية فإنها رجعية التفكير، كائن مهزوم وضعيف يتسم باللافاعلية.

لا يتوقف الأمر عند هذا فقط، فقد تحدث الكاتب عبر نصه عن العنف الزوجي الذي عاشته المرأة في ظل العشرية السوداء، ولازلت تعيشه إلى يومنا هذا، إذ بين الرواية والواقع الحالي مواشجة لا يمكن فصلها، فإذا كان " قتل الأنثى هو اللمسة الختامية لثقافة أبوية – ذكورية راسخة تغلغلت في ثنايا الفكر ، بما فيه الفلسفي، فمن المألوف أن نخمن عمق الكراهية في التقاليد والممارسات الشعبية ضد النساء"[25]، إذ نلمح صورة الزوج المتغطرس الذي يظهر جليا على لسان بعض الشخصيات، وكما يتضح في هذا الوصف "يرمي امرأة بثلاث بنات إلى شارع كما ترمي الكلاب ...قالت يشتمني ويضربني لأتفه الاسباب يعيرني بأم البنات، صبرت وقلت لعل الله يرزقني بولد، لكن منذ ولادة الطفلة الثالثة، هاج وماج وأصبح لا يكلمني إلا بالسب والشتم، بل أصبح يصب غضبه على البنات أيضا ويركلهن بلا سبب".[26]

إن القارئ لهذا المقطع الذي يبدو بسيطا في ترصيف كلماته، لكنه يحمل بين طياته عنفا له عدة دلالات نسقية، بدءا بالشعور بالعار لولادة الأنثى، فمنذ الجاهلية وحتى فترات طويلة في الثقافة العربية صور الرجل باسوداد واحمرار وجهه لإنجابه أنثى، فهذا الفكر الرجعي الذي تتداوله الثقافة العربية جعل من المرأة الجزائرية تعاني بسبب إنجابها للأنثى، كما حدث مع هذه المرأة التي تعير بإنجاب البنات ومورس بحقها العنف النفسي – المعنوي.–

وصولا إلى الصورة السلبية للأب التي ظهر فيها في هذه الرواية، التي لا تختلف عن الصورة النمطية التي اعتادتها السرود في شخصنة الأب، فهذه الصورة موجودة منذ الجاهلية فقد بدأ الرجل بنكران الأنثى ليصل إلى تعنيف بناته بالضرب والركل وهو عنف حركي – فيزيائي.–

وفي ظل المعطيات السابقة، نلحظ أن المرأة قد تعرضت لجل أشكال العنف – جسدي / معنوي –، وقد نقل محمد ساري في روايته " القلاع المتآكلة " تلك الصورة.

5– عنف اللغة :

تعد اللغة ظاهرة اجتماعية قبل اعتبارها ظاهرة فنية أدبية لسانية، فاللغة بهذا المفهوم تعتبر الوعاء الحامل للثقافة والهوية، لتنعكس بذلك البيئة الثقافية الاجتماعية في شكل الهيئة اللغوية، فنحن هنا نتكلم عن العلاقة القائمة بين المجتمع واللغة فالمدرسة الاجتماعية مثلا، تركز على كون اللغة مرآة عاكسة للمجتمع.

وفي ظل الأحداث التي شهدها المجتمع الجزائري في التسعينات ومواكبة سطوة الظلم والقهر، كان عنف اللغة مرآة عاكسة لذلك العنف الدموي، فوسيلة العنف هنا هي الكلام اللفظي والذي " يهدف هذا النوع من العنف إلى التعدي على حقوق الآخرين بإيذائهم عن طريق الكلام والألفاظ الغليظة"[27]، وبالتالي يقف هذا النوع من العنف عند حدود الكلام التي تحمل معاني القتل الشتم والتهديد والانتحار الدالة على ثقافة العنف.

وبوجه عام، يلاحظ الناظر لرواية القلاع المتآكلة استحواذ العنف اللغوي والذي بدروه يختلف عن لغة العنف، على مساحة كبيرة في سرد الأحداث وتوصيف الأماكن، وهذا ما عبرت عليه شخصيات الرواية من خلال وصفها لذلك الوضع المتمزق المتشرذم الذي كان نتاجا عن تلك الحرب الأهلية بين السلطة والجماعات المسلحة فمن " عادة هؤلاء القتلة أن لا يخطئوا في هدفهم"[28]، فالقتل بالضرورة ينتج عنه الموت والذي عبرت عليه الرواية بكثرة ويكاد يكون البؤرة المركزية لها.

فقد كانت الرواية سجالا تفصيليا، عن الموت الذي حصد أرواح الأبرياء في عين كرمة بالقول:" أربعة قتلى من العائلات"[29]، وفي ظل ذلك الصراع المؤدلج الذي أدى إلى غضب الشخصيات وانفعالها، يترجم ذلك الغضب بألفاظ السب والشتم معبرا عن الأسى والوضع القاتم في زمن التسعينات.

إن السمات الرئيسية والتي حورت أفعالهم وترجمتها أقوالهم الحادة، نستدل عليها من خلال سلوك شخصية عبد القادر بالسب والشتم على تلميذه السائق "انفجرت غاضبا وشتمت السائق ولعنته وسلالته بصوت لفت انتباه الحاضرين"[30]، ليستمر ذلك العنف اللغوي على لسان الشخصيات المعتقلة بالقول" لم أتوقف على الصراخ والشتم"[31] ويستمر بالقول: "أولاد الكلب خنازير، أولاد القحاب".[32]

واضح من كل ما سبق، بأن رواية القلاع المتآكلة قد عبرت من خلال اللغة عن تلك الاوضاع التي شهدتها الجزائر في زمن العشرية السوداء، لتقدم بذلك نقدا للواقع يستمد جوهره من تلك الأزمة التي خلفت شتات الأمة، وإذا كانت الفطرة الطبيعة للإنسان أن يولد حرا ويعيش حرا، فإن تلك السجون التي طوقت وقمعت بها السلطة كل من يعترضها، قد سلبت حريته.

خاتمة:

إن ما يمكن الوصول إليه من هذه الدراسة

1– اجتهد الكتاب الجزائريين في التعبير عن الواقع الذي عاشته الجزائر في فترة التسعينات ومن بين هؤلاء الكتاب الذين أماطوا اللثام عن قضايا المجتمع بطريقة فنية "محمد ساري."

2– عناية الروائي: "محمد ساري" بكل ما هو مسكوت عنه، فضلا عن محاولة اكتشاف الأنساق المضمرة وتعرية العنف الثقافي في متونه.

3- رواية "القلاع المتآكلة" رواية تاريخية تتحدث عن السنوات السوداء التي عاشتها الجزائر، وأهم الأحداث السياسية في فترة ما بعد الاستقلال.

4- لقد تعرضت المرأة لشتى أنواع الظلم والاضطهاد والعنف، وقد جعلت المتنون السردية –العنف الذي يمارس ضد المرأة – منهلا لسرديتها، بالإضافة إلى الوصاية التي يستخدمها الرجل على المرأة ليشرع هيمنته الذكورية والتي تعتبر نوعا من أنواع العنف الرمزي – عنف مشرعن – وهذا ما جسدته رواية "القلاع المتآكلة" لمحمد ساري.

5- **ليبقى السؤال مطروحاً: –هل ستبقى أعمال محمد ساري تحمل تيمة العنف داخل الروايات التي عبرت عن الفترة التسعينية، أم تتوجه إلى معالجة الأمراض الثقافية الموجودة في عصرنا؟**

الهوامش:

* المؤلف المراسل

[1] سمير سعيد حجازي، قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، دار الأفاق العربية، القاهرة، 2001، ص 93.

[2] مجمع اللغة العربية، معجم الوسيط، المجلد 1، مكتبة الشروق الدولية، ط1 ،2004، ص 231.

[3] غادة شحاتة، ثقافة العنف بالمناطق العشوائية، دار الفكر العربي، القاهرة، 2012، ص 20

[4] ينظر: مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي – مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور –، المركز الثقافي العربي، ط9، المغرب، 2005، ص، 189، ص 190.

[5] عبد الرحمن العيسوي، علم النفس الجنائي أسسه وتطبيقاته العلمية، الدار الجامعية، ط2، بيروت، ص 220.

[6] أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، ص141.

[7] محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماعية، دار المعرفة، الإسكندرية –مصر–، ص259.

[8] فريدريك معتوق، معجم العلوم الاجتماعية، بيروت للنشر والطباعة ،1998، ص 40.

[9] مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر، ط1، دمشق، سورية، ص 43.

[10] قباري محمد إسماعيل، علم الاجتماع الثقافي ومشكلات الشخصية في البناء الاجتماعي، دار المعارف، الإسكندرية، مصر، ص 16.

[11] دنيس كوتش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، تر: منير السعيداني، مراجعة: الطاهر لبيب، ط1، بيروت، 2007، ص 31.

[12] المرجع نفسه، ص 17.

[13] سمير خليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2016، ص 248.

[14] عبد الله الغذامي، النقد الثقافي– قراءة في الأنساق الثقافية العربية، الدار البيضاء، ط3، لبنان، بيروت، 2005، ص 73 .

[15] محمّد ساري، روائي وناقد ومُترجم أدبيّ جزائريّ، من مواليد (1958). تخرَّج في جامعتَي «الجزائر»، و«السوربون» في باريس، وأستاذ النقد الحديث ونظرية الأدب والسيميولوجيا في جامعة «الجزائر2». يكتب باللّغتَيْن؛ العربيّة والفرنسية، وله مجموعة من الإصدارات في الرواية والنقد، كما ترجم ونَشَر زهاء عشرين رواية من الفرنسية إلى العربيّة، إلى جانب ترجمات أخرى في مجالات النقد والفكر والفنّ والتاريخ والسياسة، نوارة لحرش، محمد ساري: الكاتب يحب الإطراء، ويمقت النقد، آخر تحديث:17/مارس/2021، اطلعت عليه بتاريخ :28/نوفمبر/2022، في الساعة: 13:02، الرابط: https://www.dohamagazine.qa

[16] جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس، ص 242.

[17] عدنان علي الشريم، الأدب في الرواية العربية المعاصرة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط 1، 2007م، ص17.

[18] محمد ساري، رواية القلاع المتآكلة، دار البرزخ، الجزائر، 2013، ص 16.

[19] المرجع نفسه، ص 26.

[20] المرجع نفسه، ص 22.

[21] المرجع نفسه، 172

[22] المرجع نفسه، 24

[23] هيفاء أبو غزالة، برنامج تدريب مدربين حول مناهضة العنف ضد المرأة البرنامج التدريبي، منظمة المرأة العربية، ط1 مصر ،2013، ص 14.

[24] محمد ساري، القلاع المتآكلة، ص 62.

[25] إبراهيم عبد الله، السرد النسوي – الثقافة الأبوية، الهوية الأنثوية والجسد –، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2010، ص 20، ص 21.

[26] محمد ساري، القلاع المتآكلة، ص 34.

[27] فهد بن علي بن عبد العزيز الطيار، العوامل الاجتماعية للعنف لدى الطلاب لمرحلة الثانوية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة نايف العربية، الرياض، السعودية، 2005، ص 30.

[28] الرواية، ص 9.

[29] الرواية، ص 14.

[30] الرواية، ص 19.

[31] الرواية، ص 175.

[32] الرواية، نفس الصفحة.